مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 09 / العـدد02 (2021)، ص: 1337- 1371

حوار الحضارات، من تحيز الهويات إلى فقه التعارف: جذور الهوية الغربية[1].

The Interactions Among Civilizations: From Identities Bias into the Approach of Acquaintance

أ.د كمال جحيش[1]

[1]جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية

Ka1dj5@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/30 تاريخ القبول: 2021/10/02 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

تطرح هذه الورقة قضية حوار الحضارات من جهة ارتباطه بالهوية، ذلك أن أغلب وجوه الطرح لهذا الحوار تحيل أسباب فشله على الهويات وانكفائها على نفسها، وترى أن أهم ما جاءت به الحداثة يمكن اختزاله في التأكيد على هوية الإنسان بالمعنى الحيوي وحسب، حيث يصبح المطلوب هو الخروج من الهويات الثقافية إلى الهوية الدستورية التي تسمح بالتعايش في ضل الدولة الحديثة. أما الهويات التي تأسست على التفاعل الثقافي فهي هويات موهومة، قاتلة، وتعرقل العيش المشترك.

وهذه الورقة تنطلق من فرضية مفادها أن فهم الهويات من الداخل- سواء من جهة بنيتها أو تكوينها-، مرحلة ضرورية لبحث إمكانات التلاقي بينها، ومن هذا المنظور، فإن فهم بنية الهوية الغربية وكيفية تشكلها، يمثل أحد الركائز الأساسية في إقامة تواصل بناء تكون هي طرفا فيه، من هنا يحق لنا أن نسأل: إلى أي مدى يمكننا الحديث عن هوية غربية واحدة ؟ وهل الغرب واحد حتى نبحث عن جذور هويته؟ ماهي أهم العناصر المكونة لهذه الهوية بحيث يمكننا من خلالها تمييزها عن سائر الهويات الأخرى؟ ماهي إمكانات التلاقي التي تتوفر لدى الغرب من أجل

[1] تم دعم هذا البحث من قبل البرنامج البحثي العام بعمادة البحث العلمي، جامعة الملك خالد – أبها- برقم GRP-83-41

التلاقي البناء؟ هذه بعض الأسئلة نسوقها بين هذه الدراسة محاولين تقديم بعض المقاربات بشأنها وفق منهج تاريخي تحليلي.

كلمات مفتاحية: الحضارات، الهوية، التعارف، الغرب.

Abstract:

This research discusses the issue of interactions among civilizations in terms of its connection to the identity, because many aspects of tackling this dialogue attribute its failure to the identities and their self-reliance. At the same time, they consider the most important results of modernism can be reduced to vitally assert the identity of all human beings. So, it would be desirable to leave the cultural identities to depend on the constitutional one which paves the way to coexistence within the modern state. But the identities based on cultural interactions are delusional, fatal, and impede coexistence.

This paper proceeds from the hypothesis that understanding identities from within - whether in terms of their structure or composition - is a necessary stage for examining the possibilities of convergence between them. From this perspective, understanding the structure of Western identity and how it is formed is one of the main pillars in establishing constructive communication in which it is a party

Therefore, we have the right to ask: To what extent can we talk about a single Western identity? Is the West one to search for the roots of its identity? What are the most important components of this identity so that we can distinguish it from other identities? What are the possibilities of convergence that the West has for constructive encounter? These are some of the questions we bring to this study, trying to present some approaches to them, according to a historical-analytical approach.

Key words: civilizations, identity, mutual knowledge, west.

المؤلف المرسل: كمال جحيش

مقدمة:

في أي صورة من صور حوار الحضارات غالبا ما تستحضر مفاهيم الهوية ليتم توظيفها بصورة أو بأخرى، غير أن الصورة التي يتم توظيفها بها بشكل مطرد

هي في الغالب صورة أحيطت بسياج من الإيديولوجيا، وهو ما يجعل النفاذ إلى هذه الهوية وفحصها أمرا بالغ الصعوبة، لا يرجع أمر هذه الصعوبة إلى هذا السياج الإيديولوجي الذي تشكل حول عناصر الهوية وحسب، بل يرجع أيضا إلى كون بعض هذه العناصر تم عجن طينتها بماء الإيديولوجيا، وهو ما يزيد أمر فصل عناصر الهوية عن الإيديولوجيا صعبا. هذا التوصيف ينطبق على سائر الهويات بدرجات متفاوتة.

في هذه الورقة سنحاول الكشف عن جذور ومكونات الهوية الغربية، واستقصاء وتتبع بعض الجوانب المتعلقة بتاريخ الأفكار التي شكلت وعي الغرب، وذلك بالاستعانة بما استقر عليه كتاب الغرب وفلاسفته، يرجع مسوغ هذا الاهتمام بالدرجة الأولى إلى كون الغرب يمثل أحد أبرز أطراف حوار الحضارات. سنحاول الكشف عن هذه المكونات وتركيزها في أقل ما يمكن من العناصر وتناولها بشيء من التحليل، مع بذل الوسع في تحري الموضوعية، وقد رأينا من المناسب تناول هذه العناصر من خلال الخطوط الكبرى المشكلة لهذه الهوية وهي في تقديرنا ما يمكن إجماله في ثلاث ركائز أساسية يقع حولها الاتفاق بين كتاب الغرب وفلاسفته، بينما أدرجنا بعض العناصر المؤثرة الأخرى تحت ما يناسبها من أحد الأصول التي تناولناها، وهذه الجدور الثلاثة في تقديرنا هي: المكون اليوناني الروماني، المكون الديني المسيحي والعلم الحديث.

المبحث الأول: المكون اليوناني الروماني

لا يختلف اثنان في أن روح الغرب الحديث تتصل بالثقافتين اليونانية والرومانية اتصالا وثيقا، وهذا ما يؤكده فلاسفة الغرب أنفسهم على صورة لا تحتاج إلى بيان وتدليل، ومع أن هذا قد تم بصورة انتقائية ظاهرة من جهة التماس الأفكار المؤسسة للغرب الحديث، إلا أن هذا أصبح أمرا مسلما به بالنسبة إليهم، يرى هؤلاء أن الحضارة اليونانية أمدت الغرب بحزمة من النظريات الفلسفية والرؤى الرياضية وجملة من القيم الأخلاقية والأفكار السياسية التي مازال صداها يتردد إلى اليوم في العالم الغربي خصوصا، لقد سطر اليونان تجربتهم في الخروج من نظام العشائر أو اللادولة إلى نظام الدولة التي تبسط سلطتها وهيبتها على الجميع، لتنفذ جملة القوانين التي اتفق عليها عموم الشعب

وفق منظور ديمقراطي، فأصبحت الدولة هي المنفذة للقوانين وفق سلطة قضائية مستقلة. لقد كانت مساهمة اليونان في هذه الجوانب وفي غيرها على درجة عالية من الأهمية، إلى الحد الذي يجعلنا نصفها ب"معجزة اليونان"(Nemo, 2004, P11-21)

وبالنظر إلى تلك الحزمة من المفاهيم التي تعود إلى الثقافة اليونانية، تلك التي تحفل بها الثقافة الغربية وتحتفل بها، يمكن إدراك السبب الذي لأجله يدين الغرب به لليونان في قطاع كبير من صور تفكيره.

فإلى اليونان يرجع فضل الإعلاء من قيمة العقل، وإليهم يرجع فضل التنظير لقواعد البحث الفلسفي والرياضي والسياسي، وإليهم يرجع فضل الحديث عن العدالة والفضيلة وغيرها(روس، 2011، 41-62).

وليس موقع الثقافة الرومانية بأقل حظا من نظيرتها اليونانية داخل بنية الغرب، بل إنها تحتل مساحة شاسعة داخل الوعي الغربي، فالرومان لا يختلفون عن اليونان من حيث تزويدهم للغرب بكثير من البنى المختلفة، إذ "يعتبر الرومان كما اليونانيون وراء معظم البنى العقلية الغربية، وهم الذين زودوا الغرب بنموذج لغوي...لكن أول ما نقلته روما كانت الأفكار والقيم اليونانية"(روس، 2011، ص64) ، على أن الذي يعنينا هنا هو تتبع مسار الأفكار الأساسية التي نمت وترعرعت في البيئة اليونانية القديمة، وكذا الأفكار التي أضافتها الحضارة الرومانية، تلك الأفكار التي تمثل المرجع الأساس للثقافة الأوربية الغربية الحديثة والمعاصرة، تلك التي ما انفك علماء الغرب وفلاسفته يؤكدون على حضورها القوي الفاعل في تشكيل بنية الغرب الحديث، وتحديد معالم شخصيته، ومن هذا المنظور رأينا التركيز على بعض الأفكار دون غيرها لأهميتها الكبيرة من جهة، ولكونها تساعدنا على ما نحن بصدد البحث فيه، ونخص بالذكر تلك الأفكار التي شكلت أعمدة الفكر اليوناني وأعاد الغرب الحديث والمعاصر إحياءها بعد أن أوجد العلائق التي تربطه به، بناء على هذا رأينا أن هذه الأفكار الأساسية تتمثل في الآتي:

أ- **اللوغوس**: يمثل اللوغوس أحد المفاهيم المركزية في الثقافة اليونانية بالجملة وفي جانبها الفلسفي خصوصا، فكثيرا ما يرد الحديث عنه بمعنى العقل، وبمعنى المنطق، وبمعنى القوى العاقلة، أو القوى الخفية التي تتحكم في سير الظواهر والأشياء، وغيرها من سائر المدلولات الأخرى الكثيرة التي يحملها هذا المفهوم، والظاهر أن المفهوم يحمل مدلولا مركزيا يقترب من معنى العقل وما يدور في معناه، وهو ما كان يتردد كثيرا على ألسنة فلاسفة اليونان، ويحمل مدلولات قريبة من هذا في المسيحية، على أن الذي يعنينا في هذا المضمار هو مسألة الانتقال من الميتوس[2] إلى اللوغوس، وهي تلك اللحظة الفارقة التي انتقل فيها الإنسان من الأسطورة إلى العقل في تفسير الظواهر، وقبل ذلك في طرح الأسئلة المناسبة.

قد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن مسألة الانتقال هذه من التفسيرات الأسطورية إلى التفسيرات العقلية تنسب إلى اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، تلك الفترة التي افتتح فيه عهد التفكير العقلي المنظم، فكانت المدرسة الطبيعية بزعامة طالس، ثم تلتها في الظهور سائر المدارس الفلسفية الكبرى، إلى أن جاء أرسطو الذي يعد خاتمة التفكير الفلسفي المبدع، ليهيمن بعد ذلك ذاك الإبداع الفلسفي على ما تلاه، بما في ذلك هيمنة المفاهيم الكبرى التي من بينها اللوغوس.

هذه الفكرة سرعان ما انتقلت إلى المسيحية وشكلت جناحا كبيرا ما كان للمسيحية أن تستمر من دونه، لينتقل اللوغوس إلى الفلسفة الحديثة بصورة جلية، وكأن الفلسفة الحديثة تستعيد المقولات اليونانية القديمة، لكنها توظف لغايات أخرى.

والجديد الذي نجده في الفلسفة الحديثة هو توظيف " اللوغوس" من أجل التأكيد على العقل وعلى كمونه في الثقافة الغربية المتفردة، تلك التي بطبيعتها عقلانية، وأبرز شخصية نجد عندها حضورا قويا لفكرة اللوغوس هي فلسفة هيغل في العصر الحديث.

---

[2] الميتوس: من الكلمة الأجنبية Mythe وتعني الأسطورة.

ب- **الصراع والجدل**: هو واحد من أبرز المفاهيم التي وجدت في الثقافة اليونانية القديمة، ولعل أبرز تعبير عن هذه الفكرة ما ورد في أشعار هومر في الأوديسا والإلياذة وكذا في الأساطير المشهورة، وأقرب نموذج لهذه الأساطير أسطورة بروميثيوس التي تصور الصراع الدائر بين الإنسان الباحث عن المعرفة والآلهة التي تحرمه منها، ومع إصرار بروميثيوس على ذلك وسرقته النار المقدسة وإعطائها للإنسان إشفاقا عليه من البرد يعاقب بروميثيوس من قبل الإله زيوس، بأن أمر بتقييده على قمة جبل في القوقاز وسلط عليه نسرا ينهش كبده في كل صباح لتعود فيما بعد كما هي، ويتقبل بروميثيوس العذاب مادام البشر ينعمون بالنار وإبداعاتها. هذه واحدة من الأساطير التي تلخص لنا صراع الآلهة مع الإنسان، لينتقل الصراع فيما بعد إلى عالم الإنسان نفسه، وتتحول حياته إلى حلبة للصراع الدائم.

تم استحضار هذه الفكرة من جديد من قبل الغرب الحديث والمعاصر، -وبالأحرى أنها لم تغب عن ضميره- ليصبح الإنسان في مقابل الله على المستوى الوجودي، والأنا في مقابل الآخر على مستوى الإنسان تحديدا، والذات في مقابل الموضوع على مستوى المعرفة، والفرد في مقابل المجتمع على مستوى الممارسة، ليدخل الإنسان في صراع لا ينتهي في نطاق جدلية تتخلق باستمرار. استعار فلاسفة الغرب الحديث والمعاصر مفهوم الصراع وأكملوا حلقته بأن اصطنعوا له فكرة تخدمه وتسوغه ألا وهي الجدل، ليتحول هذا الجدل وما يترتب عليه من صراع إلى فكرة قادرة على تفسير كثير من الظواهر الإنسانية إن لم نقل كلها. على أن هناك ملاحظة نجد من المناسب إبداؤها في هذا المقام، وهي أن هذه الثنائية تختفي في مستوى معين، وذلك وفق قانون الجدل نفسه. وهو ما سيتم بيانه لاحقا. وقد يلتبس مفهوم الجدل بمفهوم آخر وهو مفهوم التغير الذي اشتهر به هيراقليطس، ومقولته:" إنك لن تنزل النهر مرتين" بالغة الشهرة، والتغير في حقيقته يمكن عده نقيضا للقول بثبات الماهيات، وهو بذلك يختلف عن الجدل.

ولسنا نأتي بجديد إذا قلنا إن هذه الفكرة التي سكنت ضمير الإنسان الغربي، أضحت مركزا لمنظومته المفاهيمية، وأضحت بذلك محركا لسلوكه

الاقتصادي والسياسي، بل وفاعلة في صور إدارته لجميع علاقاته مع غيره، ولا شك أن النزعة الإمبريالية هي أوضح تمثيل لهذه الفكرة، إذ تتجلى هذه الإمبريالية حتى في مضمار الدفاع عن حقوق الإنسان، التي يفترض فيها أن تكون إنسانية شاملة.

لقد كانت هذه الإمبريالية واحدة من أكثر الأفكار إساءة للإنسانية، بما تسببت فيه من مآسي بعيدة الأثر، وبما سببته من شرخ في ضمير الإنسانية من الصعب تجاوزه إن لم ذلك مستحيلا، إذ جسدت هذه الفكرة نزعة التفوق الموهومة، ورسخت فكرة المركز والأطراف التي عليها مازالت تدار سائر العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

المبحث الثاني: المكون الديني: المسيحية وما يرتبط بها

تشكل المسيحية حجر الزاوية الأساس في تكوين الغرب بالصورة التي يوجد عليها حاليا، فرغم الصراع المرير الذي شاب علاقة الإنسان الأوربي – الغربي مع المسيحية، إلا أنه يدين إليها بروحه وتوجهاته، ويظهر ذلك في الحماسة الظاهرة المشوبة بشيء غير قليل من الفخر، تلك التي يبديها كثير من كتاب الغرب وفلاسفته عندما يتحدثون عن المسيحية، إذ يرون أن الكتاب المقدس أحد منابع الأفكار الغربية ومهد حكمته وأخلاقه(روس، 2011، ص35). هذه الفكرة هي واحدة من بين أكثر الأفكار تداولا في الأوساط الغربية حاليا، على أن الحديث عن الغرب لابد أن يقترن به الحديث عن أوربا، وهذا بالنظر إلى كون أوربا بالمعنى الجغرافي وما يتصل به من معنى ديني وثقافي هي النواة التي تشكل حولها الغرب، وليس هناك شك أن مركزية المسيحية في إبراز فكرة أوربا إلى الوجود لا يمكن القفز عليها بوجه من الوجوه، فـ "لقد برزت فكرة أوربة من فكرة عظيمة أسبق منها- وهي فكرة العالم المسيحي، وحين انهارت الامبراطورية الرومانية فإن كل ما كان يوحد أولئك الذين كانوا تحت سيطرتها هو المسيحية- أي أن كل أراضيها وشعوبها، مهما تكن حالات المد والجزر في القوة السياسية، كانت موحدة عقليا، وتتمتع بحضارة مشتركة، وكان تراث المسيحية يستكمل بثقافة فكرية غنية،

وتوحده اللغة المشتركة، وهي اللاتينية ، ويشترك بالتصورات نفسها، والكتب والمؤسسات المتشابهة على نحو ملحوظ"(روس، 2011، ص35).

هكذا قامت المسيحية بإعادة ترتيب البيت الأوربي ترتيبا جديدا، حيث إنها كانت الفكرة التي تسد الفراغ الحاصل لسبب من الأسباب، ومن ذلك أنها هي من نهض لسد الفراغ في القرن الخامس الميلادي عند سقوط روما على يد القبائل الشمالية، فضلا عن كونها السبب الرئيس في تلاحم الصليبيين واتفاقهم على حرب المسلمين على مدى قرابة ثلاثة قرون فيما عرف بالحروب الصليبية، كما كانت المحرك الأساسي إن لم تكن المحرك الوحيد خلال ما عرف بحرب الاسترداد، وما صاحبها من مآسي تسببت فيها محاكم التفتيش وألحقت الأذى بكل من خالفها بله بمن لم يكن مسيحيا، سواء كان من المسلمين أو من اليهود.

- استمرت المسيحية في أداء دورها في توجيه دفة الوعي لدى الإنسان الأوربي - الغربي إلى وقتنا الحالي، على الرغم من جملة الانتقادات الشديدة التي وجهت إليها طيلة القرون الخمسة الأخيرة، ويظهر تأثير المسيحية في إخراج فكرة أوربا إلى الوجود وتمييز هويتها في تلك المحاولات الداعية إلى إنشاء برلمان أوربي موحد في القرن الثامن عشر،" لقد كان وليام بن (1644- 1718) هو أول من دعا إلى قيام برلمان أوربي، وفي العام 1751، سمى فولتير أوربا نوعا من الجمهورية الكبيرة المقسمة إلى دول عديدة...ولكنها تتوافق بعضها مع بعض، وكلهم يملكون الأساس الديني نفسه...ومبادئ القانون العام والسياسة نفسها، وهي غير معروفة في أجزاء أخرى من العالم، وليس هناك الآن فرنسيون أو ألمان، أو إسبان أو إنجليز، مثلما غامر روسو بالقول قولا متفائلا نوعا ما في العام 1771م: ولكن أوربيون فقط"(كوك وسميث، 2009، ص 37)، فالمسيحية كانت محددا هاما لهوية أوربا حتى عند فلاسفة التنوير الذين عرف عنهم عداؤهم الشديد للكنيسة. وعلى الرغم من المحاولات الحثيثة التي كانت تستهدف إبعاد المسيحية وإقصاءها عن إدارة الشأن العام خصوصا الشأن السياسي، إلا أن حضورها بقي فاعلا في صور شتى من المشاركة، ولعل أقسى ما تلقته المسيحية من ضربات، ما تم تثبيته في نصوص معاهدة و يستفاليا التي أنهت الحرب الدينية

التي أنهكت أوربا بين 1616و 1648، تلك المعاهدة التي نصت على إبعاد الكنيسة عن الشأن السياسي، وفوق ذلك إخضاعها مع ممتلكاتها للمراقبة من قبل الحكومات العلمانية، إلا أن هذا لم يزحزح المسيحية عن موقعها أو يبعدها عن التأثير في الشأن العام، بل إن تأثيرها بقي مستمرا وإن كان قد عرف تناقصا تدريجيا مع مرور الزمن بفعل حركة العلمنة.

هكذا تشكل الغرب عبر التاريخ حول نواته الأولى" أوربا"، فكانت المسيحية هي التي أظهرت أوربا – الغرب إلى الوجود، وهو ما جعل ريتشارد كوك وكريس سميث يذهبان إلى أنه " ما من شيء أكثر أهمية أساسية لنجاحات الغرب ولطغيانه، ولإخفاقاته من المسيحية، ومع ذلك فالمسيحيون والكافرون بالمسيحية قد يفاجؤون بشكل متساو لدى اكتشافهم كيف قلبت المسيحية العالم القديم بشكل كامل، وحولت علاقات السماء والأرض، ومازالت تحدد طريقتنا في الحياة وتحدد شخصياتنا نفسها"(كوك وسميث، 2009، ص55)، هكذا يتفق الغربيون حول مركزية المسيحية في تشكل الغرب سواء كانوا من المؤمنين بالمسيحية أو كانوا من غير المؤمنين، بل حتى لو كانوا من خصومها، بل إن أوربا نفسها لم تكن لتوجد بهذه الصورة لولا المسيحية، وبفضل المسيحية "، وصلت فكرة أوربا إلى أن تصف لا الواقع الجغرافي وحده ولكن رؤية شاملة – وهي رؤية مجتمع متمدن ، متسامح، مسالم، وهو في الوقت نفسه متنوع وموحد، ومتجاوز للقومية وللسياسات، ومؤسس على المعرفة والتقدمات الثقافية، وهو صديق للفنون وللعلوم وللتجارة، وللتقدم في الكرامة الانسانية والحرية والسعادة"(كوك وسميث، 2009، ص 38) ، والمسيحية بلا شك تقع في قلب هذه التحولات.

على أن هناك أمرا تجدر الإشارة إليه وتوضيحه، وهو أن المسيحية في أوربا وفي الغرب عموما ليست ديانة بالمعنى التقليدي للكلمة، بل إنها أقرب ما تكون إلى المعنى الثقافي منها إلى المعنى الديني المتعارف عليه، ولذلك فإن انتساب الغرب إلى المسيحية هو انتساب ثقافي وليس دينيا، فكون المسيحية فكرة جامعة لا يعني أن الغرب يحتفظ لها بمعناها الديني وما يستدعيه من حضور لجانبها الطقوسي، بل إن الرؤية البراغماتية هي الغالبة في النظر إلى المسيحية.

ولعل ما سبق ذكره يفسر لنا خضوع التعاليم المسيحية للتأويل باستمرار، بل يمكن القول بأن نشأة المسيحية ذاتها قامت على تأويلات مركبة لجملة من العناصر الثقافية التي كانت موجودة في القرن الأول في الشرق القديم، خصوصا التراث اليهودي والتراث الإغريقي، وهذا الأمر لم يعد خافيا، بل إنه أصبح من المسلمات المتداولة عند علماء اللاهوت المسيحي." فالمسيحية مثل معظم التجديدات المذهلة جمعت فكرتين قويتين سابقتين في الوجود وتيارين من الفكر: الأول يهودي، والآخر إغريقي"(كوك وسميث، 2009، ص56) ، حيث قامت المسيحية بعملية مزج بين الأفكار اليهودية والإغريقية منتجة بذلك رؤية للعالم هي أغرب بكثير وأشد إفزاعا من سابقتيها، لكنها رؤية أقوى منهما بشكل لا يقبل المقارنة(كوك وسميث، 2009، ص58) ، وعلى الرغم من الاختلاف بين رؤية العالم لدى الإغريق وبين نظيرتها لدى اليهود، فإنها كانت تعني ضمنا نتيجة مماثلة داعية للنشاط، فيجب أن يكون البشر مستقلين ذاتيا وأن يتولوا المسؤولية عن أقدارهم، والغايات الإنسانية والإلهية يمكن أن ينسجما(كوك وسميث، 2009، ص58).

كان هذا التطور المستمر في اتجاه تمكين الإنسان من التحكم بصورة أكبر في تسيير شؤون حياته هو في تقدير فلاسفة الغرب يرجع بالأساس إلى هذين العنصرين اللذين شكلا المسيحية، على أن هناك أمرا نراه جديرا بالانتباه إليه وهو أن تجاور بنيتين متعارضتين داخل المسيحية، وفي وقت مبكر، ونعني بذلك التراثين اليهودي والإغريقي، قد ألحقا بالمسيحية الأولى ضررا لم يعد في الإمكان إصلاحه، إذ من المعلوم أن تاريخ المسيحية الأولى يشير إلى فترة فراغ شديدة أضحت معه تلك الديانة لا تمثل إلا طائفة صغيرة لا تأثير لها في المجتمع اليهودي آنذاك، خصوصا وقد اعتبرها اليهود المتحمسون خصوصا الفريسيون فرقة يهودية ضالة، لكن تحولا شديد القوة كما هو شديد الخطورة أيضا حصل مع ظهور شخصية غريبة الأطوار، وتحمل في طياتها أسرارا شديدة الغموض، ونعني بها شخصية شاؤول الذي صار فيما بعد يعرف باسم بولس الرسول، ذلك أن هذه الشخصية تحولت من خصم لذود للمسيحية إلى واحد من أشهر شخصياتها

بعد المسيح، لقد كان شاؤول ملما بالثقافة اليونانية، ولا شك أن التحول الذي حدث معه لا يمكن أن تذهب معه ثقافته اليونانية، لقد أعاد شاؤول صياغة اللاهوت المسيحي وأخرجه في صورة جديدة، وكل آرائه تدور حول حياة وموت وقيامة السيد المسيح، ولاشك أن واحدة من أخطر مبادئ المسيحية ألا وهي التجسد تعود إلى بولس، وهي تلخص فكرة يونانية تتمثل في كيفية اتصال الآلهة بالأرض، فالآلهة عند اليونان ليس بينها وبين الإنسان فرق، فهي تحب وتكره وتنتقم وتتحالف مع بعضها ومع الإنسان ضد خصومها.

هكذا تمكن شاؤول(ت64م) "ذلك المواطن الروماني ذو الخلفية الثقافية اليونانية"(تارناس، 2010، ص 136) القادم من الوسط اليهودي وبحركة بسيطة من إدخال فكرة غنوصية ذات أصل يوناني لتتجاور مع الموروث اليهودي الذي أمده بفكرة المخلص، لتبني ما صار يعرف بالمسيحية، ويتمكن بذلك من نشرها في غير بيئتها الأولى، وينتقل بها إلى العالم الهلينستي، بعد أن وجد معارضة من اليهود لتصبح بذلك مسيحية يونانية – رومانية أكثر منها مسيحية فلسطينية(تارناس، 2010ص،137) ، وما ذاك إلا بفعل العناصر اليونانية التي أدخلها بولس، وبذلك انتصرت الهلينستية مرتين؛ الأولى عندما أدخلت التصور اليوناني للآلهة في صلب الإيمان المسيحي، والثانية عندما نقلت مركز الثقل للمسيحية من فلسطين إلى العالم الهلينستي، وأخرجت بذلك المسيحية الأولى التي كانت تحتضنها الجماعة اليهودية وتصبغ عليها الطابع المحلي الخاص باليهود ولا يتعداهم إلى غيرهم، أخرجتها إلى رحاب العالمية، وأنقذتها بذلك من الاندثار، وهذا بفعل اللوغوس الكوني للفلسفة اليونانية، ذلك أنه " تعالى على جميع التناقضات والنقائص الظاهرة، حيث عقل السماء حاكم للإنسانية كلها مع الكون(كوزموس)، ولكنه كامن مع ذلك في عقل الإنسان وفي متناول أي فرد مهما كانت أمته وشعبه بالقوة(تارناس، 2010، ص، 138)".

إن هذه الحركة التي حصلت في وقت مبكر من تاريخ المسيحية فتحت الباب على مصراعيه لحركة نقل وتأويل تتم باستمرار، يستعان فيها في كل عصر بما راج وانتشر من ثقافات مختلفة بل وحتى متعارضة.

ولا شك أن هذه الفكرة التي بثها شاؤول وجدت لاحقا وبوقت وجيز من يدخلها في دائرة النصوص المسيحية المؤسسة، ولتكون فيما بعد الأساس الذي بنيت عليها سائر قواعدها اللاهوتية، ونعني بذلك القديس يوحنا الذي ينسب إليه الإنجيل الرابع، ذلك أن علماء الأناجيل أصبحت لديهم قناعة راسخة أن الإنجيل الرابع يختلف اختلافا واضحا عن سائر الأناجيل الثلاثة، فهو من أول جملة فيه " فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله"(إنجيل يوحنا، فقرة 1)، يظهر الأثر اليوناني، ليتأكد من خلال هذه الفقرة: "وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا"(إنجيل يوحنا، 14/1) ، وهذا ما أشار إليه تارناس بقوله:" إلا أن علاقة المسيحية بالفلسفة اليونانية لم تبدأ بفاعلية إلا مع الكلمات التمهيدية للكتاب المقدس حسب يوحنا، "في البدء كان اللوغوس" وبعيد ذلك بدأت عملية اندماج غير عادية بين الفكر اليوناني واللاهوت المسيحي، وتواصلت متمخضة آخر المطاف عن حصول تغيير في هذا وتلك"(تارناس، 2010، ص 139) ، إلا أن التغيير الأكثر وضوحا جاء مع الإعلان المسيحي "أن اللوغوس عقل العالم بالذات، كان بالفعل قد تقمص شكل الإنسان في شخص يسوع المسيح التاريخي وأثار اهتماما واسعا في عالم الثقافة الهلينستية . وعبر فهمهم للمسيح بوصفه لوغوسا متجسدا، قام أوائل اللاهوتيين المسيحيين بالمزاوجة بين العقيدة الفلسفية الإغريقية القائلة بعقلانية العالم السماوية القابلة للفهم من جهة والعقيدة الدينية اليهودية القائلة بعالم الرب الإبداعي المتجلي عن إرادة الرب السماوية المضفي على تاريخ الإنسان معناه الخلاصي، ففي المسيح أصبح اللوغوس إنسانا: أصبح التاريخي والأزلي ، المطلق والشخصي واحدا"(تارناس، 2010، ص 141).

- إن وجود الأثر اليوناني البارز في هذا الإنجيل جعل كثيرا من المشتغلين بحقل الدراسات الإنجيلية يقولون إن هذا الإنجيل لكاتب يوناني مجهول، وسواء كان هذا حقيقيا أو ليس كذلك، فإن هذا الإنجيل يدل بوضوح على أن كاتبه ذو خلفية ثقافية يونانية صريحة، ممزوجة بالغنوص، وكثير من النقاد ينفي أن يكون إنجيل يوحنا من عمل أحد الحواريين الذين كانوا شهود عيان لحياة المسيح، ولكنه عمل فيلسوف صوفي غنوصي من أفسس(الكلام، 2009، ص214).

- وفضلا عن التأثير اليوناني فإن هناك عنصرا آخر كان حاضرا وليس من المناسب تجاهله ونعني به التأثير الغنوصي الشرقي، الذي بلا شك مارس تأثيره على المسيحية في فترة تشكل أسسها اللاهوتية.

- إن التعويل العريض على تفسير ما حصل للمسيحية الأولى على الغنوص اليوناني وحده قد يكون سببا في حجب كثير من الحقائق الأخرى المتصلة بذات القضية، ومن ثم فإن هذا يقتضي الالتفات إلى عنصر الغنوص الشرقي الذي تسلل إلى التراث اليهودي، ووضع بين يديه واحدة من أخطر الأفكار التي ذاعت في الشرق القديم، ونعني بذلك تلك الفكرة المحورية في المسيحية المتمثلة في فكرة الخلاص، وهي فكرة كانت رائجة بشكل واسع في الشرق القديم، إذ كان لها وجود في الزرادشتية، كما لدى الصابئة المندائيين، وإذا عرفنا أن يحيي(يوحنا المعمدان في الإنجيل) هو من قام بتعميد المسيح، وأن يحي هو النبي الأكثر تقديرا عند المندائيين، بل هو آخر أنبيائهم، تبين لنا وجه الصلة بين الغنوص المندائي وكذا الغنوص الشرقي عموما وبين التراث الديني اليهودي، خصوصا الكتابات الدينية التي تم تحريرها زمن الأسر البابلي، أي قبل النبي يحي بقرون.

- لقد أعطت هذه الفكرة ثمارها على نطاق واسع في البيئة اليهودية، إلى الحد الذي لا يمكن معه فصل التراث اليهودي عنها ولا فهم هذا التراث من دونها، إن رسوخ هذه الفكرة هو الذي جعل اليهود دائمي الترقب لظهور من يخلصهم من سطوة الأغيار، ويحررهم من سيطرة الغوييم، لقد كانوا دائمي الانتظار لظهور ملك نبي من نسل داوود، ولهذا رفضوا أن يكون المسيح هو من جاءت النبوءات مبشرة به، واتهموه لأجل ذلك بالتجديف.

لم يكن تجاور هذين التراثين داخل البنية المسيحية ليمر بسلام عليها، ذلك أن التناقضات الموجودة بينهما لم تنفك تظهر بين وقت آخر في صورة أزمات عاصفة، ولا شك أن من بين أشد الأزمات خطورة على المسيحية ما حدث في مجمع نيقية(325م)، وذلك حين حضر التراث الهليني بقوة مدعوما بسلطان الإمبراطور الروماني الذي على الرغم من أنه لم يكن مسيحيا، إلا أن تدخله في سير وقائع المجمع كان حاسما في تغليب الرؤية اليونانية الرومانية، تغليب الروح

اليونانية ذات التوجه الفلسفي القائم على اللوغوس، وتغليب الروح الرومانية العسكرية التي تنزع إلى الغلبة والسيطرة، لقد كان تدخل الإمبراطور الروماني حاسما ومرجحا لطرف على سائر الأطراف الأخرى، لكنه رجح الطرف الذي يتوافق في رؤيته مع النزعة الرومانية، إذ كان هذا الذي رجحه على استعداد تام للفتك بخصومه ومخالفيه، عكس الأطراف الأخرى التي بدا وكأنها ترفض حتى مبدأ الجندية من أساسه. هكذا انتصر قسطنطين للروح الرومانية بالأساس، واستطاع أن يوظف الروح اليونانية لأجل ذلك.

ولا شك أن أبرز ظاهرة يمكن ملاحظتها هي أن ما يمكن تسميته باللاهوت اليوناني عرف امتدادا غير مسبوق على يد شخصيتين كبيرتين في التاريخ المسيحي، أما الأول فهو أوغوسطين(ت430م) الذي عاش خلال القرن الخامس الميلادي، أما الثاني فهو توما الإكويني(ت1274م) الذي عاش خلال القرن الثالث عشر الميلادي، إذ كان لهاتين الشخصيتين الكبيرتين دور لا يستهان به في التمكين لجناحي التراث اليوناني في المسيحية، ذلك أن الأول قام بدور الوسيط بين الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة وبين المسيحية من جهة أخرى، فيما قام الثاني بالتمكين للرؤية الأرسطية، إلى الحد الذي تبنت معه الكنيسة الرؤية الأرسطية للعالم. ويمكن إجمال الأثر الذي خلفه هذا التجاور على المسيحية فيما يأتي:

-أ- **نتائج التأثير الأفلاطوني:** إن وجود تميز للخط الأفلاطوني داخل المسيحية أنتج لاحقا لونين من النزعة الانسانية داخل المسيحية نفسها، إنسانية مسيحية ذات جذور يهودية متأثرة بشكل واضح بالأفلاطونية وإنسيانة ذات توجه علماني يعود في جذوره إلى الشق اليوناني الروماني، والشكل الأول من الإنسانية حاول أن يستعيد التوجه الإنساني الديني الذي يعود إلى المسيحية الأولى، ويحاول أن يستعيد إنسانية السيد المسيح كما تجلت في تلك الكلمات ذات الأثر الروحي البالغ في نفوس أتباعه، وهذه لم تخل من تأثير أفلاطوني بارز خصوصا وأن " التراث الأفلاطوني كان في نظر عدد كبير من أوائل المثقفين المسيحيين، تعبيرا صادقا عن الحكمة السماوية، القادرة على إضفاء رؤى ميتافيزيقية على بعض أكثر الألغاز المسيحية عمقا"(الكلام، 2009، ص 140).

- لقد امتزج لاهوت أفلاطون بالأفلاطونية المحدثة في شخص أوغوستين وشكل صورة كان مستبعدا وجودها في السياق المسيحي إلى ذلك الحين، ومنذ أن أدخل أوغوستين الأفلاطونية في اللاهوت المسيحي صارت الأفلاطونية تقدم أفكارا جديدة للإنسان الأوربي- الغربي، حيث أعاد اكتشاف القيم الإنسانية التي اشتملت عليها الأفلاطونية، ذلك أن هؤلاء الإنسانويين اكتشفوا في الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة تراثا روحيا غير مسيحي ذا عمق ديني وأخلاقي بدا مناظرا لما لدى المسيحية نفسها من هذا العمق. فالأفلاطونية الجديدة تشي بوجود دين كوني شامل أو كلي، وربما كانت المسيحية تجليها الأقصى لكنه ليس الوحيد(الكلام، 2009، ص255)، هكذا نظر الإنسانيون في البداية إلى الأفلاطونية ورأوا أنها تلتقي مع التعاليم المسيحية، لكن تطورا لم يكن محسوبا حصل في هذا الجانب أدى لاحقا إلى تجاوز المنظور الكنسي للإنسان ومن ثم التمرد عليه، لتتطور إلى إنسانية متمردة على التقاليد المسيحية، التي كانت إلى ذلك الحين تشجب قدرة الإنسان على التوغل الفكري أو الروحي المستقل في معنى العالم، من منطلق كون الكنيسة والكتب المقدسة صاحبة السلطة والمرجعية المطلقتين في قضية الفصل النهائي لقضية الحقيقة (الكلام، 2009، ص201).

إن مصادرة الكنيسة لحق الإنسان في المعرفة، وفي التعبير عن حاجاته الإنسانية سواء كانت أرضية أو سماوية بواسطة الفن، حيث لم يكن الفن إلا كنسيا والتعبير به لا يكون إلا عن الموضوعات الدينية الخالصة، فليس له أن يرسم إلا السيد المسيح وأمه مريم، وأقصى ما يمكنه التعبير عنه هو شوقه إلى الفردوس المفقود، فقد كان الإنسان محروما من التعبير عن آلامه وآماله بكل حرية كل ذلك جعله يبحث عن هذه الحرية في مضارب أخرى غير مضارب الكنيسة، فكانت ردة فعله تمردا غير مسبوق، وقد وجد ضالته في الأفلاطونية ومعها الأفلاطونية الجديدة خصوصا التي قدمت له رؤية جديدة للطبيعة وللإنسان وللسماء(تارناس، 2010، ص256). لقي التصور الذي قدمته الأفلاطونية الجديدة للإنسان بوصفه فيضا إلهيا احتفاء شديدا من قبل الإنسانويين، حيث أصبح ينظر إليه أنه مؤهل لأن "يكتشف في داخله صورة الألوهية اللانهائية. بدا

كونا مصغرا جزئيا نبيلا مجسدا للكون السماوي الكبير. أكد "فيتشينو، ت 1499م" في كتابه لاهوت أفلاطون أن الإنسان ليس فقط" وكيل الرب" بطاقاته الأرضية العظيمة، بل ويكاد أن يكون متمتعا بعبقرية مؤلف السماوات نفسها من حيث مدى ذكائه، و"فيتشينو" ذلك المسيحي الورع بالغ في إطرائه نفس الإنسان مضفيا عليها قابلية ′التحول بمعنى من المعاني، إلى الأشياء كلها، بل وحتى إلى إله، عن طريق الذكاء والإرادة، بالإفادة من هذين الجناحين الأفلاطونيين التوأمين′"(تارناس، 2010، ص256). بهذه الصورة التقريبية تطورت الإنسانوية، فبعد أن كانت مبنية على رؤية مسيحية استحالت إلى إنسانية علمانية مع عصر التنوير، وهي إنسانية ترى قدرة الإنسان من الناحية المعرفية على الاستغناء عن الله ، بل فوق ذلك صارت تنظر إلى حضور الله على أنه إلغاء للإنسان، وهو ما يمثل انتصارا لجانب التراث الإنساني اليوناني على حساب التوجه الأول الذي كان يرغب في استعادة الصور الإنسانية المتعارف عليها في حياة السيد المسيح، وكلتا الرؤيتين كانتا إلى جانب بعضهما بعضا في بناء المسيحية نفسها. وهناك أمر آخر جدير بأن نلتفت إليه، وهو أن هذا التوجه الأفلاطوني كان له أنصاره داخل الكنيسة خصوصا ممن عارضوا جمود العلم الأرسطي، ومن هؤلاء "جون دونس سكوت، ت1308م" الذي استمد إلهامه من المذهب الأوغوسطيني، ونبذ العديد من مظاهر فيزياء أرسطو مستخدما لتحقيق ذلك حججا من علم اللاهوت(مينوا، 2005، ص334).

-ب- **نتائج التأثير الأرسطي**: ليس من شك في أن تلك الحركة النشيطة التي استهدفت إحياء التراث الأفلاطوني وتراث الأفلاطونية الجديدة بدءا من القرن الثاني عشر، صاحبتها أيضا حركة إحياء استهدفت التراث اليوناني في شقه الأرسطي، ويبدو التأثير الرشدي هنا واضحا، بوصفه شارح أرسطو، فقد امتد تأثير ابن رشد إلى توما الإكويني بصورة لا يمكن القفز عليها.

لعل التقليد المسيحي الذي كان سائدا في أوربا إلى زمن توما الإكويني لم يكن يسمح بهامش كبير من الحرية في التعاطي مع العالم الخارجي، ذلك أن الكنيسة كانت تشيع في الإنسان الأوربي أنها قادرة على التصدي لكل الأسئلة سواء

تعلقت هذه الأسئلة بالسماء وملكوتها، أو تعلقت بالأرض وشؤونها، كانت إلى ذلك الحين ترى أن الإنسان لا يحق له البحث في عالم الطبيعة، فمن اعتمد على نظره يخشى عليه من الوقوع في تهويمات الفلاسفة الوثنيين، وبالتالي ما هو عن الهرطقة ببعيد، وقد كان هذا المسلك مسنودا بالتقليد العلمي اليوناني، وسادت حينها روح البحث عن الحقيقة في بطون كتب الأولين، لا في عالم الطبيعة، وقد كان من سمات العلم اليوناني أنه لم يكن يلقي بالا للمعرفة العلمية المبنية على التجربة، " فقد كان العلم اليوناني مهتما بالدرجة الأولى بالحياة الإنسانية، فكان علم حياة لا علما رياضيا، لذلك أصاب نجاحا كبيرا في دراسة الإنسان وأعماله، أما في دراسة الطبيعة وعناصرها فلم يصب النجاح إلا قليلا"(راندال، 2013، ص178) ، غير أن هذا الوضع لم يدم، حيث خرج من الكنيسة نفسها من يعترض على هذا التوجه وإن كان على استحياء، فلقد ظهر في القرون الوسطى مفكر يدعى ألبرتوس استطاع بذكائه أن يميز بحسم بين معرفة مستمدة من اللاهوت من ناحية، ومعرفة مستقاة من العلم من ناحية ثانية، فاللاهوتي هو الخبير في شؤون الإيمان، أما في القضايا الأرضية المبتذلة، فإن العلم يعرف أكثر، شدد ألبرتوس على القيمة المستقلة للمعرفة العلمانية، وعلى الحاجة إلى الإدراكات الحسية والملاحظات التجريبية التي يمكن للمرء أن يسند إليها معرفته بالعالم الطبيعي(تارناس، 2010،ص 216)". تلقف توما الإكويني هذه الفكرة وتبناها، وسواء وصلته من ابن رشد أو من صديقه ألبرتوس، فإنها آتت بثمارها، رأى توما الإكويني أن التعاليم المسيحية لا تتعارض مع العلم الطبيعي، بل إنهما يلتقيان ويتضافران معا، ويسند بعضهما بعضا، وبدا وكأن حوارا مباشرا قد بدأ بين الوحي المسيحي والعالم العلماني(تارناس، 2010، ص216). لم يكن هذا الموقف من توما الإكويني ليحوز رضى اللاهوتيين، إذ سرعان ما رأوا في ذلك تهديدا للإيمان المسيحي، ذلك أن الاعتقاد بوجود عالم طبيعي محكم التنظيم يحد قدرة الرب، ومقلصا لخلق الرب الحر(تارناس، 2010، ص217).

- هكذا نالت الطبيعة تقديرا ملفتا على يد توما الإكويني، كما لقي الإنسان على يديه اهتماما كبيرا، خصوصا عندما رأى أن الإنسان كلما كان حرا

كانت عودته لنبع الجميع، وبالفعل فإن الإنسان لا يستطيع أن يحب الرب بحرية، وأن يحقق مصيره الرفيع مالم يكن حرا(تارناس، 2010، ص219).

- كان توما الإكويني يرغب في أن يقيم بنيانا قائما على أساس تقدير العالم الطبيعي دون التفريط في الإيمان، بل إن هذا التلاقي من شأنه أن يجعل اللاهوت أكثر مسيحية(تارناس، 2010، ص228). لقد كان الجهد الذي قام به الإكويني تتويجا لجهد كان قد بدأه قبله لفيف من رجال الدين المسيحي ممن التحقوا بجامعات الأندلس لعلهم يستعيدون العلم الذي استحوذ عليه المسلمون بزعمهم، إذ كان هدفهم بالأساس البحث عن السبل التي تضمن تفوق الثقافة المسيحية، فعن طريق العلم يمكن التحكم بالتقنيات التي تزود المسيحيين بالتفوق الاستراتيجي(مينوا، 2005، ص212).

- لقد كانت المهمة التي نهض لها توما الإكويني ونجح فيها إلى حد بعيد مهمة توفيقية بامتياز، بين المسيحية والشق الأرسطي من التراث اليوناني عندما أطلق على الميتافيزيقا الأرسطية "العلم السامي" لأن موضوعها اشرف الموضوعات وأكثرها ألوهية(إبراهيم،1997، ص301)، وهذا دون أن يلزم نفسه بالتضحية بالشق الأفلاطوني من التراث اليوناني، غير أن ما قام توما الإكويني لم يكن ليلقى القبول من النافذين في الكهنوت المسيحي (الإكويني، 1881م،ج1، ص15)، بل لقي معارضة كبيرة، تتجلى هذه المعارضة خصوصا في الأحداث اللاحقة التي ترجمت بحق حركة نكوص رهيبة عما سبق لتوما الإكويني أن ناضل من أجله، فقد ازدادت المخاوف لدى رجال الكنيسة من أن يؤدي النظر في العالم الطبيعي إلى تهديد الإيمان المسيحي والقضاء عليه في النهاية، لذلك رأت الكنيسة التراجع عن الخطوة التي خطاها توما إلى الأمام باتجاه العلم الطبيعي بوصفه داعما للإيمان، والعودة إلى العلم بالمفهوم الأرسطي الجامد.

- لم يكن أحد يتوقع خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر أن تتطور الأمور بتلك السرعة، لينقلب التأييد الذي لقيه بعض الشيء أولئك الذين كانوا على طريقة توما الإكويني الأرسطي أو دونس سكوت الأوغسطيني، لتحل محله المعارضة الشديدة بعدهما لأي توجه علمي يعتمد التجريب خلال القرن الرابع

عشر، لتحدث القطيعة مع الكنيسة، وتصبح في موقف المعارض الدائم لأي إنجاز علمي يتحقق.

- غير أن الإسفين الذي دقه توما الإكويني في هذا الجمود اليوناني سرعان ما عاد ليهيء الأرضية لقطف الثمار، لكن هذه الثمار هذه المرة كانت مختلفة تماما، لقد كان توما يرغب في أن يتطور العلم الطبيعي في كنف المسيحية خادما لها، بحكم كون العالم تعبيرا عن إرادة الرب، لكن بحكم النكوص عن هذا الحل التوماوي الذي حل بالكنيسة، ومع أن الكنيسة ردت الاعتبار لتوما الإكويني لاحقا، إلا أنها لم تسمح بأن يمضي الأمر إلى نهايته على الوجه الذي كان قد تصوره الإكويني، إلى أن قطعت الشك باليقين حين اعتمدت المذهب التوماوي عقيدة رسمية سنة 1563م، ولكن تبنيها ذاك كان في شقه الأرسطي الجامد، ذلك أن الكنيسة لم تكن لترضى بأن يتم البحث في العالم الطبيعي بعيدا عن الرقابة التي كانت تفرضها، فغالبا ما كانت تسارع إلى اتهام من لا يتقيد بأوامرها، فيتعرض للزجر والتعنيف، وغالبا ما يتطور إلى التعذيب والقتل، والشواهد على ذلك كثيرة. لقد كان من نتائج إقحام توما الإكويني للعلم الأرسطي وزرعه لبذور المذهب الطبيعي اليوناني داخل النظرة المسيحية للعالم(روس،2011، ص23) أثره البالغ، بالرغم من تحفظه على بعض مبادئه التي رآها لا تثبت بالتجربة، وإن كان أيضا خطا به خطوة بدفعه إلى الأمام نحو التجريب، فلقد أصبح العلم الأرسطي في صورته التقليدية غير مسموح بخرق مبادئه، وهو ما جر إلى رد فعل بالغ الأثر من قبل العلماء الذين رأوا في ذلك مصادرة للعلم وتشويها للحقيقة العلمية، وهو ما ترتب عليه لاحقا نشوء علم تجريبي علماني، سلط أدواته فيما بعد على تلك القناعات الدينية بهدف إبطالها، فإذا كان ديكارت يظن أن فلسفته قابلة للتوافق مع الوحي الإلهي، فإن أتباعه "راحوا ينتقدون المعتقدات القديمة ويتهجمون على مبدأ السلطة والعقائد المسيحية، وأخذت الأمور تتعاظم مع طرح اسبينوزا المتمثل في: الله أو الطبيعة. تهجم العقل في مجرى الأفكار على الإيمان ذاته وناضل بوسويه واليسوعيون دون جدوى ضد العقل الناقد الذي هدد الإيمان المسيحي"(روس، 2011، ص24). لقد أدرك علماء اللاهوت المسيحي هذه

المشكلة المتمثلة في الارتباط الوثيق بين التعاليم المسيحية والفكر اليوناني، وطرحوا ما سموه " نزع الهلْيِنة" الذي يتمثل في تخليص المسيحية من التراث الفلسفي الغريب عنها، وفي هذا الشأن يقول البابا بندكت السادس عشر(1927- ....): "إن هذا اللقاء بين الإيمان الإنجيلي والفلسفة الإغريقية، كان على قدر كبير من الأهمية ليس من جهة موقف تاريخ الأديان، بل ومن جهة التاريخ العالمي. وهو أمر ما يزال يهمنا حتى اليوم. وبالنظر لهذا المشيج فإن المسيحية بالرغم من أصولها وتطورها البارز في المشرق، اتخذت سيرها ومصيرها وطبيعتها في أوروبا. ونحن نستطيع أن نعبر عن ذلك بأن هذا المشيج، مضافا إليه الميراث الروماني، صنع أوروبا، وهو يبقى التأسيس الذي يعبر بالكامل عن الذات الأوروبية. وهذه المقولة التي تذهب إلى أن الميراث الإغريقي المصفى يشكل جزءا جوهريا من الإيمان المسيحي تصادمه عمليات "نزع الهلْيَنة" عن المسيحية، وهي العملية التي سيطرت في النقاشات اللاهوتية منذ بدء الأزمنة الحديثة"(محاضرة البابا بندكت السادس عشر)، وهذه العملية تبدو في نظر البابا محكوما عليها بالفشل، ذلك لأن "العهد الجديد كتب باليونانية، ويحمل الروح اليونانية. والتصغير من هذا الأمر أو ذاك باسم العودة للعهدين من جانب المسيحيين يفقد المسيحية روحها الباحثة، وقدرتها حتى على اعتناق الحداثة". وينتهي إلى أن هذه المسألة بالذات "يمكن الوصول إلى وجود تناغم بين القناعة الإغريقية والفهم الإنجيلي للإيمان بالله"(محاضرة البابا بندكت السادس عشر).

- إلى هنا يمكن أن نقول إن المسيحية عاشت ولفترة طويلة على إدارة أزمتها الداخلية الناجمة عن الانزلاق الخطير الذي حرفها عن كونها دينا لتتحول إلى حقل ثقافي متعدد المشارب، وينطوي على تناقضات كبيرة، تظهر بين وقت وآخر إلى السطح، وتختفي تارة، ململمة تناقضاتها ومنكفئة على نفسها.

لقد أصبح ينظر إلى التوجيه المسيحي نظرة نسبية، وفقدت الكنيسة بذلك ومعها تعاليم المسيح إطلاقيتها، صار ينظر إليها نظرة لا تختلف عما ينظر منه إلى سائر الأديان والمنظومات الأخرى التي كانت تعد في نظر الكنيسة من قبيل الهرطقات، هنا تمت علمنة الإنسان بالتدريج بقطع الصلة بينه وبين الدين، أو

بينه وبين المعنى، بكل ما يحمله من نتائج على المستويين الوجودي والمعرفي، لتتوج لاحقا بالدعوة إلى إنهاء المسيحية ذاتها، وذاعت التصريحات الشبيهة بهذا النداء " يجب على كل عصر أن يكون لديه شخص شجاع واحد على الأقل يحاول أن يضع نهاية للمسيحية، وهو الأمر الذي لم ينجح به أحد حتى الآن"(بوكانن، 2005، ص 349).

غير أن الثابت في كل هذا، هو أن المسيحية بالرغم من التناقضات الداخلية والهزات العنيفة التي تعرضت لها، تلك التي أوشكت أن تعصف بها، إلا انها استطاعت أن تجيش الجيوش في حرب صليبية طويلة، وأن تشكل ملاذا تستظل تحته شعوب أوربا لقرون متطاولة. إذ" ومهما كانت صحة المسيحية الميتافيزيقية الفعلية، فإن الاستمرار الحي للثقافة المتمدنة الغربية بالذات مدين بوجوده لحيوية وانتشار الكنيسة المسيحية في طول أوربا في القرون الوسطى وعرضها"(تارناس، 2010، ص205) ، وفوق ذلك أن تجري حوارا خارجيا مع خصومها باسم أوربا كاملة، حوارا وظفت فيه جميع إمكاناتها الثقافية واللاهوتية، وحتى إمكاناتها العسكرية.

بعد هذه الجولة التي رمنا من خلالها تقديم صورة عن جملة التحولات التي مرت بها المسيحية، يمكن أن نستنتج أن المسيحية تركيب يهودي يوناني، التقت فيه المركزية اليهودية بمقولاتها المعروفة خصوصا تلك المتمثلة في الدين الخاص والشعب الخاص(شعب الله المختار) مع اللوغوس اليوناني، لتشكل مجتمعة ما صار يعرف بالعقل الغربي المتمركز حول ذاته، الجامع لكثير من الآفات التي تمنعه من إقامة علاقة إنسانية مع غيره، خصوصا تلك الآفات ذات الصلة باحتقار الآخر وهي فكرة نحسب أنها يهودية بامتياز.

الغرب المعاصر والمسيحية: هل الغرب المعاصر مسيحي؟ يبدو هذا السؤال من أكثر الأسئلة إلحاحا، ذلك أنه من خلال الصيحة السابق ذكرها، تلك التي أطلقتها "مارلين مانسون"، وتهيب بمن يضع حدا للمسيحية أن يبادر بذلك، يعتقد لأول وهلة أن هناك من سينتدبون أنفسهم للقيام بهذه المهمة، إذ بدا حينها أن أمر المسيحية لم يبق له الشيء الكثير حتى يفرغ منه، غير أن الأمر ليس بهذه

السهولة، هذا من جهة كون المسيحية أكثر تجذرا مما يظن، فضلا عن كون أمر المسيحية لازال يحتل حيزا كبيرا في وعي الرجل الأوربي- الغربي، حتى وإن كان التزامه بتعاليمها يأتي في آخر اهتماماته، ولعل حضور المسيحية في وعي الرجل الغربي عبر عنه الرئيس الأمريكي بوش حين أعلن عن انطلاق حرب صليبية عشية غزو أفغانستان، حيث وقف العالم مشدوها منتظرا ما سيحدث، وقد وضع وراء ظهره كل الاحتمالات بخصوص حرب دينية، لكن هذا الخطاب كان من شأنه أن يعيده إلى الواجهة، من هنا يمكن أن نسأل: أي الصورتين أوفى تعبيرا عن دخيلة الرجل الغربي؟، هل المسيحية حقا في طريق الانقراض لتحل محلها منظومات أخرى قادرة على تشكيل وعي الإنسان الغربي بصورة أفضل؟، هل المسيحية قادرة بالفعل على تجييش وتعبئة الإنسان الأوربي الغربي لينهض بحرب دينية كان قد جرب ويلاتها من قبل داخل أوربا وخارجها؟، يبدو أن الجواب عن هذه الأسئلة ليس بالأمر الهين، بحكم الطابع الليبرالي التعددي الذي يحكم المجتمعات الأوربية- الغربية، وهو الأمر الذي يجعل من وجود الدين واللادين إلى جوار بعضهما أمرا مسوغا، ويجعل من وجود طوائف أصولية مغرقة في الطوباوية الدينية إلى جوار طوائف أخرى تسعى لعبادة الشيطان مبالغة منها في رفض الدين أمرا واقعا، كل هذا يجعل من الصعب تقديم جواب قاطع عن هذه الأسئلة، وعلى ذلك فإنه من المهم أن نقف عند جملة من المقاربات الاجتماعية الدينية التي من شأنها أن تقدم ملمحا ولو قريبا يجعلنا نخرج بجواب وإن كان ليس قاطعا، إلا أنه يمكننا من البناء عليه.

قد يكون من نافلة القول التذكير بالحال الذي آلت إليه المسيحية في العصر الحديث، حيث أصبح معلوما أنها تعرضت لهزات عنيفة نالت منها بشكل بارز، حيث تم تقليص دورها في مختلف جوانب الحياة على التدريج، وهذا مكافأة لها على الدور السلبي الذي أدته بامتياز، خصوصا في تحجيمها لقيمة الإنسان الذي وصل إلى حد الهدر، والذي تم التعبير عنه بصور مختلفة، تجلى خصوصا في محاكم التفتيش التي تسببت في موت الآلاف من البشر، وكان بطبيعة الحال

أخطر دور قامت به هو الفتك بالعلماء، وعدم الاعتراف بأي طريق للحقيقة غير الطريق الذي تحدده بوصفها ممثلة للمسيح.

كان رد الفعل على جناية الكنيسة هو التمرد عليها، والبحث عن طرق أخرى للمعرفة بعيدا عن الدين ومن يمثله من رجاله، حينها تم الشروع في عملية تفكيك منهجي لجميع المقولات الدينية، وما ترتكز عليه من أسس بقصد الإجهاز عليه بإثبات تهافته، ولاشك أن الفلاسفة الأوائل قد اشتغلوا على هذا المنحى سواء عن قصد أو عن غير قصد، إذ من المعلوم أن الفلسفة منذ عهد الإغريق كانت متماهية مع الميتافيزيقا ومحملة بمفاهيمها الغيبية وجاءت التجريبية البريطانية في الأساس لتشكك في مصداقية المعرفة الميتافيزيقية بادعائها أن التجربة هي مصدر جميع معارفنا (أبو الفضل، عبود، الخطيب، 2008، ص 38).

أنكر "جون لوك" مقولة الأفكار الفطرية لاعتقاده أن جميع المعارف تأتي من الحواس ثم يتم تنظيمها في أفكار أكثر تعقيدا، وجاء "باركلي" لينكر الوجود المستقل للأشياء بزعمه أن الخصائص الأساسية هي الأخرى أمور ذاتية، وهكذا وباستثناء معرفتنا بأنفسنا وبالله، فإن كل معرفة مصدرها الإدراك الحسي(أبو الفضل، عبود، الخطيب، 2008، ص32).

ثم جاء هيوم ليواصل تصفية العناصر غير التجريبية لأقصى مداها، حيث أنكر وجود أي حقيقة خارجة عن التجربة وتتخطى انطباعات الحس، وفوق ذلك أنكر أن تكون لدينا معرفة بأنفسنا أو بالله، لأن الانطباعات الحسية لا تعطينا مثل هذه المعرفة، وهذا هو الذي يبرر موقف هيوم الداعي إلى الإعراض عن الميتافيزيقا، وعلم اللاهوت، وعلم الأخلاق، وهو ما نتجت عنه موجة من الشك لحقت حتى المعارف المتولدة من الخبرة والتجربة، لأنها مبنية على مجرد اقترانات بحكم إنكاره لمبدأ السببية(أبو الفضل، عبود، الخطيب، 2008، ص39). جاء الحل الكانطي لينقذ الموقف المأزوم الذي سببه هيوم بإضفائه نزعة شكية على كل المعارف، ليطلق عبارته المشهورة" الإدراكات من غير تصورات عمياء، والتصورات من غير إدراكات فارغة"، لكن الحل الذي قدمه بقدر ما أعاد

الثقة في العلوم الطبيعية بقدر ما ألقى بظلال من الشك عن المعارف الغيبية بتأكيده على استحالة قيام معرفة بالميتافيزيقا، وعليه إنكار قيام أي معرفة دينية.

هكذا اكتملت الصورة في الموقف من الدين ومن المعرفة الدينية بالجملة في قمة العقلانية الحداثية، ليصبح موقف الكنيسة بالغ الحرج، ليتوالى الحديث عن الاستغناء الشامل عن أي معرفة دينية، وما أن أوشك القرن التاسع عشر على الانقضاء حتى أصبح الاعتقاد السائد أن على المسيحية ومعها كل دين آخر أن يبحث عن ملاذ آخر بعيدا عن مواكبة التجربة الإنسانية في مغامرتها الدنيوية.

غير أن الكنيسة سرعان ما كانت تتمكن من استيعاب الصدمات المتوالية، إلى الحد الذي أصبحت معه مستعدة لتبرير ما لا يبرر، بل ومستعدة لأن تلبس ما يستجد من أثواب تنسجها مختلف صور الفلسفات حتى لو كانت متعارضة، وليس أدل على ذلك من قبولها بالتوجه العلماني بل ورعايته في كثير من الأحيان رغم أنها تبدو وكأنها تعارض ذلك. (الإشارة إلى ماكس فيبر).

وربما يبدو مستقبل المسيحية في الغرب يتجه نحو المجهول(بوكانن، 2005، 339) ، ذلك أنها تتعرض من وقت إلى آخر إلى مضايقات كبيرة حتى في داخل المجتمعات التي يفترض أنها حاضنة لها، ويمكن الوقوف على شواهد كثيرة من هذه المضايقات، تلك التي في مجملها ترى أن المسيحية عليها أن تنسحب من حياة المجتمع بسلاسة، وأن تتخلى عن كثير من مراكزها لصالح حركة العلمنة الزاحفة بقوة.

ومع هذه الصيحات الداعية إلى الابتعاد عن التوجيه الديني، هناك صيحات كثيرة تدعو إلى إحياء الإيمان المسيحي، لأنه الوحيد القادر على إنقاذ الغرب من موت زاحف ببطء، ولعل أقرب صوره شيخوخة الغرب ومن يسير في فلكه، تلك الشيخوخة التي يمكن الحد من أخطارها إذا تم تدارك هذا الأمر، ولا يمكن تداركه إلا بإقناع المرأة بالإنجاب، وهل هناك من سبيل إلى إقناعها غير الدين؟، ذلك أنه " في الوقت الذي بدأت فيه المسيحية تموت في الغرب، حدث شيء آخر. لقد بدأت الشعوب الغربية تتوقف عن إنجاب الأطفال، وذلك لأن الارتباط بين الإيمان وبين إنجاب العائلات الكبيرة هو ارتباط مطلق، وكلما ازداد

الوازع الديني عند شعب، سواء كان مسيحيا أم مسلما أم يهوديا كان معدل الولادة عنده أعلى"(أبو الفضل، عبود، الخطيب، 2008، ص340).

لعل من الأمور التي يمكن ملاحظتها هي أن حركة إحياء الإيمان الديني المسيحي تتم وفق رؤية براغماتية، فهي نابعة بالأساس من حاجة المجتمعات الغربية إلى التوجيه المسيحي الذي يضمن لها السيطرة والنفوذ، وهذا هو السبب في تقديرنا الذي يجعل من أي حركة للعودة إلى الدين غير قادرة على الوقوف في وجه العلمنة ،" لقد حاولت المسيحية مقاومة العلمنة ولكنها أخفقت. ومكمن الخطورة أنها عندما أخفقت في احتواء تيار العلمنة بدأ رجال الدين المؤثرون من أصحاب الاتجاه التحديثي يستحثون المسيحيين للانضمام إلى هذا التيار، على أن ادعاءهم أن المسار التاريخي الذي انتهى بالعالم إلى العلمانية له جذوره في العقيدة التوراتية وأنه ثمرة من ثمار الكتاب المقدس، يجب أن يفهم على أنه محاولة من الداخل يقوم بها هؤلاء لتخليص المسيحية الغربية من مآزقها التي تسببت فيها هي نفسها"(العطاس، 2000، 49).ذلك أن المسيحية قبلت من أول الأمر أن تنخرط في أي نسيج الثقافي بل ورحبت به، دون أن تراعي خصوصياتها الدينية، حيث إن المسيحية انفردت" وحدها من دون أديان العالم الكبرى جميعا، بأنها قد حولت مركز ظهورها من القدس إلى روما، علامة على بداية تغريبها وعلى خضوعها التدريجي والمستمر لحشد من العناصر الثقافية الغربية، تلك العناصر التي أدت في المراحل اللاحقة من تاريخ المسيحية إلى نشوء العلمنة وتسارع مسارها واشتداد زخمها(العطاس، 2000، ص 46).

وفي ظل هذا التجاذب الصريح والشديد في الآن نفسه بين ما يقتضيه الحفاظ على قوة الغرب وسطوته من ضرورة إحياء الإيمان الديني المسيحي، وبين سطوة العلمانية التي تسعى مؤسسات الدول لتمكينها بصورة أقوى بما يتفق والليبرالية، يمكننا أن نخلص إلى أن الغرب لن يتخلى عن مسيحيته، ليس من جهة كونها دينا، ولكن من جهة كونها مركبا ثقافيا من أمشاج يونانية – رومانية، يهودية، وكون الحضارة الرومانية مبنية على الصراع والغلبة وإقصاء الآخر، وتماهي مسيحية قسطنطين معها يجعل من غير الوارد أن يتخلى الغرب المعاصر

عن هذه المسيحية التي تخدمه وتبرر أعماله العدوانية مهما كانت شراستها، فروح قسطنطين مازالت ماثلة خلف الصورة، إننا نعتقد أن من يقول غير هذا أو يحاجج ضده إنما يكتب في الصفحة الخطأ.

المبحث الثالث: العلم التجريبي الحديث.

قد يكون هذا العنوان ينطوي على شيء غير قليل من التضليل، ذلك أنه يشير بصورة غير مباشرة إلى فكرة مفادها أن العلم التجريبي الحديث مقطوع الصلة عن سائر الأنماط العلمية التي كانت موجودة قبل عصر النهضة الأوربية، والحقيقة أن هذه الفكرة هي واحدة من الأفكار التي يراد لها أن تستقر في وعي الإنسان بحيث تصير مقبولة لديه دون أدنى مناقشة، بل يمكن القول أن كثيرا من مظاهر الزهو التي بدت على فلاسفة القرن الثامن عشر وعلمائه مردها إلى هذا النوع من الأفكار، تلك التي ترى أن كل شيء يمكن تفسيره في نطاق العلم التجريبي بصورته الحديثة، والحقيقة أن هذه الثقة وإن كانت ضرورية في مرحلة من المراحل من أجل إعطاء الزخم الكافي لدفع العلم إلى الأمام، إلا أن الزعم الذي صاحب بروز هذه الثقة والقائل بأن هذا العلم يملك مفعول السحر في الإجابة على كل الأسئلة التي يطرحها الإنسان، هذا فضلا عن الزعم بأن هذا العلم هو وليد العصر الحديث بكل تفاصيله، من شأنه أن يولد نتائج سلبية للغاية لم تكن في الحسبان، ومن هذه السلبيات تلك التي تعمل بصورة خفية وتوحي للإنسان بقطيعة شاملة، ليست معرفية وحسب، بل قطيعة تمتد إلى رؤية الإنسان لنفسه، وإلى رؤيته إلى القيم، بل تمتد إلى لتصير قطيعة مع الإنسان نفسه، وهو ما صار ظاهرا للعيان في صورة مختلفة.

والناظر في تحليل فلاسفة الغرب ومفكريه لهذه المسألة يجد أنهم في أغلبهم يقدمون رؤية مفادها أن هذا العلم إبداع غربي خالص، وهو الهدية الأعظم التي تقدمها الحضارة الغربية للإنسانية كلها، ويحرصون في كل مرة على التأكيد على هذه الفكرة، وهو ما يجعل من اللازم الوقوف عند هذه الفكرة وتحليلها وبيان الأسس التي بنيت عليها، ويمكن تناولها من خلال الآتي:

أ-**نشأة العلم الحديث ومساره في المنظور الغربي:**

من أكثر الأشياء ملاحظة تلك الثقة المفرطة التي يبديها كثير من فلاسفة الغرب تجاه المنجزات العلمية والتقنية، وتجاه الرؤية الجديدة للإنسان التي تشكلت في نطاق الثقافة الغربية في مجملها، و هذه الثقة يمكن القول بأنها ليست مقصورة على بعض الفلاسفة والمفكرين، بل إنها أصبحت تشمل قطاعا واسعا من الساسة وصناع الرأي العام، بل يمكن القول بأن هذه الثقة المفرطة أضحت حاضرة في أذهان المخططين على كل المستويات، وهي التي أدرك خطرها بعض فلاسفة الغرب أنفسهم ممن انتبهوا إلى المزالق الكبرى التي تهدد ليس مسار الحضارة الغربية وحدها، بل تهدد مسار الإنسانية أجمع بحكم الارتباط والتداخل الذي صار يميز شبكة العلاقات العالمية.

تبعا لهذا أصبح الزهو بما تحقق من منجزات علمية سمة ظاهرة، يمكن ملاحظتها على كل المستويات، والتأمل في أدبيات فلاسفة الغرب ممن تطرقوا إلى هذه النقطة يجدهم في أغلبهم يرجعون في تأريخهم للعلم الحديث إلى لأصول اليونانية القديمة.

لم تكن مساهمة اليونان في نظر هؤلاء في وصولهم إلى الفكرة القائلة بأن المعرفة يجب أن تكتسب بالتجريب، بل إنها تظهر في رفضهم للسحر، "وفي قولهم بأن الحقيقة لم توجد في عالم سماوي كالأشباح، ولكنها توجد في عالم من الخبرة الإنسانية القابلة للملاحظة، واعتقد بعض الإغريق انهم باستبعاد الأساطير والتفسير الماورائي للكون، يمكن أن تفهم الظاهرة الطبيعية بتعابير فيزيائية ورياضية، وقالوا إن المعرفة جزئية وقابلة للسقوط، ويجب أن تراجع دائما، حين تبرز دلائل وتفسيرات جديدة"(كوك و سميث، 2009، ص119). هذه االرؤية يبدو عليها شيء غير قليل من المبالغة، فاليونان معروف عنهم أنهم حققوا إنجازات كبيرة في الرياضيات والفلسفة، لكن فكرة اكتساب المعرفة بالتجربة لم تستقر لديهم، و "كل ما حققوه لم يكن تجريبيا عمليا، بل مناوئا للتجريب العملي، وكان فلسفات تأملية ومجموعات من الحقائ ق المناوئة للنظرية، وحرفا وتقانات معزولة، إنهم لم يحققوا أبدا اختراقا إلى العلم الحقيقي"(كوك و سميث، 2009، ص120).

بعد فترة ظهر فيها أن العلم الإسلامي أكثر تفوقا لكن "في القرن الحادي عشر بدا العلم الأوربي يلحق بعلم الإسلام وعلم الصين، وبدأ مع نهاية القرن الثالث عشر يتجاوزه"(كوك و سميث،2009، ص122)، في هذه الثناء ساهم الرهبان المسيحيون في اختراع الجامعة، وبدوا أكثر ميلا للملاحظة والتجربة ونقلوا الرياضيات والفيزياء إلى قمم جديدة(كوك و سميث،2009، ص122)، هكذا تطورت الأوضاع بصورة توحي أن عصر النهضة الذي بدا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر نما من تربة أوربا القرون الوسيطة الفكرية الخصبة(كوك و سميث،2009، ص124)، وانبثق من هذا العصر علم قائم على التصحيحات والتعديلات المستمرة بحسب ما تلميه التجربة.

أصبح جليا وفق هذه التطورات المتلاحقة، ووفق هذه التفسيرات أن العلم لا يكون إلا غربيا، وقد قال ماكس فيبر:" العلم يوجد فعليا في الغرب فقط في مرحلة من التطور نعترف بها بوصفها صحيحة اليوم"(كوك و سميث،2009، ص126)، وقال بيتر واطسون:" في القرن العشرين لم تنتج الثقافات غير الغربية أي مجموعة من العمل يمكن أن تقارن بأفكار الغرب... ومهما تكن القائمة التي تحرص على أن تصنعها عن تجديدات القرن العشرين...فهي تقريبا كلها غربية" (كوك و سميث،2009، ص127).

وهذا يعني الحكم بأن العلم خاصية غربية، وهذه الخاصية لا تشاركه فيها سائر الشعوب والأمم إلا بالقدر الذي لا يجاوز سقف الإنجاز الغربي،" فـ"من الواضح أن الغرب كان أول حضارة، وكان الحضارة الوحيدة التي تطور العلم تطويرا كاملا، وأن الأسبقية التي أعطاها الغرب للعلم أقدرته على أن يغير طبيعة الاقتصاد والمجتمع وان يخلق رفاهية عامة داخل الغرب، وأن يحقق معجزات تقانية لم يكن بمقدور العصور الأولى ولو أن تتصورها، وأن يقهر القارات كلها، وإن أهمية العلم الغربي ليست موضع شك، وسواء ظهر على نحو فريد، أو إلى درجة غير معتادة، فهو ليس الأمر المهم، وإن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو لماذا يكون العلم غربيا على نحو متفوق؟(كوك و سميث،2009، ص127)".

قد يعترف كثير منهم بإنجازات الصينيين، في العلوم والتقنية، ولكنها إنجازات محدودة حسب رأيهم، وسبب محدوديتها أنها تفتقد إلى الدوام والاستمرارية، لأنها لم تكن وفق خطة معلومة، لقد سبق للصينيين أن اخترعوا البارود لكنهم اقتصروا في استغلاله على الألعاب النارية، ولم يفكروا في استغلاله في تطوير تقنية الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، جاء الأوروبيون وأحسنوا الاستفادة من هذا المسحوق الأسود، واخترعوا الأسلحة النارية، واستعملوا البارود في المدافع التي أصبحت حاسمة في الحروب، إذ لم يأت عام 1325م حتى صارت المدفعية سيدة الحروب وأصبحت في متناول كل جيوش أوربا، وأصبحت جالبة للنصر لمن تكون معه. اخترع الصينيون المطبعة قبل يوهانس غوتنبرغ بمئات السنين، لكنهم لم يقوموا بتطويرها على الوجه المناسب، بل إنهم عادوا وتخلصوا منها، جاء جوتنبرغ واخترع المطبعة الحديثة بالحروف المعدنية، فكان أن انتشر الكتاب في أوربا بشكل سريع، وانتشرت القراءة والكتابة بصورة غير معهودة.

وليس المسلون بأحسن حظ من غيرهم من الشعوب، فلقد وصلهم العلم اليوناني، لكن جل جهدهم هو السير على طريقه، ومع أن العالم الإسلامي شهد بعض الاجتهادات في العلم التجريبي خصوصا، إلا أن افتقادها لروح المداومة أفقدها قيمتها، وها هو ابن الهيثم رغم إبداعاته المشهودة في علم البصريات، إلا أن جهوده ضاعت في بيئة لن تكن لتقدر قيمة ما وصل إليه، جاء علماء أوربا فيما بعد واستطاعوا أن يبنوا عليها أشياء عظيمة. لقد تمكن أحد علماء المسلمين في ظل الدولة العثمانية من بناء مرصد لرصد القبة السماوية، لكنه لم يستطع الانتفاع به، لأن بعض الفتاوى صدرت تحرم هذا الفعل، وسرعان ما تم هدمه بأمر من السلطان وبإيعاز من بعض المشايخ، ولم يقتصر الأمر عند المسلمين على عدم استفادتهم من إنجازات علمائهم فحسب، بل إن الإنجازات التي وصلتهم من الغرب لم يستطيعوا استغلالها. لقد حازت السلطنة العثمانية على المطبعة سنة 1721م أي بعد ظهورها في أوربا ب 280 عاما، ورغم هذا التأخر في مجاراة الأحداث، إلا أن هذه المطبعة بقيت معطلة لمدة طويلة بحجة أن الكتب المنسوخة يدويا هي الأفضل، وأن مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء.

من هذا المنظور فإن العلم الحديث وجد في أوربا التربة الخصبة لينمو ويترعرع، وقد استطاعت المسيحية بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر أن تفي بالشرط الضروري للظهور الكامل للعلم وهو الايمان باله واحد شامل القوة، إله انتظر خلقه الكامل التفسير العقلاني العلمي، وهذا ما لم تف به الأديان الأخرى(كوك و سميث،2009، ص133).

فهذا العلم خاصية أوربية غربية بامتياز، وما مشاركة سائر الشعوب الأخرى فيه إلا من قبيل المتابعة والتقليد لا غير.

هذه هي الصورة العامة التي ينظر منها الغرب إلى العلم الحديث ومساره، فهو خاصية غربية قديما وحديثا.

ب- **النتائج الفلسفية للعلم الحديث**: لم يعد خافيا أنه لا يمكن إغفال ما توصل إليه العلم الحديث من نتائج مؤثرة جدا في حياة الإنسان لقد أصبحت هذه التحولات تمس طرائق عيشه، أو تمس طرائق تفكيره، إذ لم يعد خافيا أن العلم الحديث أوجد لدى الإنسان انطباعا بأنه قادر على الإجابة عن كل الأسئلة التي تراوده مهما كانت طبيعتها، تبعا لذلك أقحم العلم التجريبي في كل حقول المعرفة، بغض النظر عن مدى صلاحيته للتطبيق على هذه الحقول.

قد يكون من المناسب التأكيد على أن جملة هذه الآثار يصعب تتبعها في كل امتداداتها، غير أن ما يعنينا هنا هو تتبعها في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، بوصفها تمثل الناظم المنهجي لحوار الحضارات والثقافات، فما من فكرة في العلوم التجريبية ذات قيمة إلا وأريد تطبيقها في ميدان العلوم الإنسانية، ونقصد بذلك شمول الرؤية المادية للإنسان، إذ صار الإنسان لا يعدو أن يكون كائنا أرقى في سلم الكائنات الحية، ولا يميزه شيء سوى أن الطبيعة منحته قوى إدراكية عالية تمكنه من أن يحتال على سائر الكائنات الحية من حوله.

كانت هذه النتيجة هي ما تم التوصل إليه عند تطبيق المنهج التجريبي على المادة الحية، وكان الإنسان أحد ضحاياها، حيث تم اختزال هويته في العناصر المادية الظاهرة، لينجر عن ذلك إدخاله في سلسلة من حلقات تطورية فقد الإنسان على إثرها موقعه في الكون، وفقد بذلك كل ميزة كان يخص بها نفسه،

ليدرك متأخرا بحسب هذه الرؤية أنه لا رسالة في هذه الحياة تنتظره أصلا سوى أن يكون فائزا في حلبة الصراع الدائم، الشيء الذي أصبح معه الإنسان العصري " في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة، وحبه للمال حبا طاغيا يقتل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة، وقد استغرق في الواقع، أي في مصدر الحس الظاهر للعيان فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده التي لم يسبر غورها بعد"(إقبال، 2000، ص 221).

أصبح معلوما أن مسألة النتائج الفلسفية للعلم الحديث لا تنحصر في مجالات البحث الفلسفي التقليدية، بل إن آثارها تمتد إلى مجالات واسعة من البحث، خصوصا تلك المتعلقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد أمد العلم الحديث أولئك المشتغلين بالعلوم الإنسانية بأدوات جديدة في التحليل، بل ووضع بين أيديهم نتائجه ليتم اعتماده وتوظيفها في ميادين بحوثهم، ولا غرابة بعد ذلك أن نجد كثيرا من علماء الاجتماع مثلا يوظفون ما تم التوصل إليه في مجال العلم التجريبي.

لعل من أخطر تلك النتائج التي يمكن الإشارة إليها هنا، تلك التي تم وضعها بين أيدي علماء الاجتماع ونعني بها مسألة التطور، ومع أن الأسس التي قامت عليها هذه النظرية لم يتم التحقق منها علميا لكونها تستعصي على ذلك، إلا أنها أصبحت لها الكلمة الطولى في تفسير الظواهر الاجتماعية، كما ظواهر الحياة، وهكذا ساد الظن في نهاية القرن التاسع عشر بأنه "حين انتصرت الداروينية والتحولية- ليس من دون عناء- عاد الانسان ابن الطبيعة، وعندئذ بدا أن المذهب الطبيعي عند اليونان قد انتصر"(روس، 2011، ص25)، وهنا ظهرت كثير من المصطلحات التي تشير إلى تبني هذه النظرية على وجه يوحي بأنها ثابتة من الناحية البيولوجية، فشاعت تبعا لذلك مصطلحات مرتبطة بها، مثل الصراع، البقاء للأقوى وللأصلح، وهي في جملتها الآليات التي يتحقق من خلالها تطور الكائنات الحية بحسب هذه النظرية، ليتم نقلها إلى مجال الدراسات الإنسانية

والاجتماعية، لتصبح نفس المفاهيم السائدة في تفسير سير الحياة الاجتماعية، وتم نقلها لتصبح هي المفاهيم الحاكمة في العلاقات الدولية لاحقا.

كان يمكن أن تبقى مسألة التطور في نطاق البحث العلمي ليتم التحقق منها من حيث صلاحيتها في تفسير ظواهر الحياة أو بطلانها، لكن الذي يبدو أن موافقتها وانسجامها مع صور التفكير الغربي المبني أساسا على فكرة الصراع، تلك التي أفادها من العقلية اليونانية القديمة التي شكلتها روح الأسطورة، خصوصا تلك الأساطير التي تصور صراع الآلهة مع البشر أو مع بعضها، ومن ذلك أسطورة بروميثيوس، هذه الروح الكامنة لم تكن لتسمح لهذا الأمر أن يسير في طريقه السليم، إذ سرعان ما تم حرفه عن مساره، ليتم توظيف هذه المفاهيم في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل إنها اتخذت ذريعة للحط من قيمة الشعوب التي لم تأخذ حظا كافيا من العلم الحديث، وفوق هذا صنفت هذه الشعوب في درجة أدنى، لتصير حركة الاستعمار التي كانت قد انطلقت بوقت طول، والاستيلاء على ثروات الشعوب وما صاحبها من استغلال الرقيق الأسود، كل ذلك أصبح مبررا طبقا لهذه النظرية، بل إنها أعطت مبررا آخر وهو أن حركة الاستعمار هي لنشر الحضارة بين الشعوب البدائية، بل وامتد الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك ليصل إلى الترويج لنظرية عنصرية بالغة السوء، وهي أن الشعوب الغربية في مستوى أعلى، وهي تمتلك عقلا أرقى مما تمتلكه سائر الشعوب، ومن ثم وجب على هذه الأخيرة أن تكون تابعة دوما، ولعل أبرز النماذج على هذه الصورة من الرؤية الدونية للآخر تلك التي روج لها بعض المستشرقين.

لقد تم توظيف هذه النظرية وغيرها في مجال البحث في الأنثروبولوجيا، فلم يكن هذا العلم على درجة من الحيادية والموضوعية الكافية، ذلك أن الفكرة الحاكمة لهذا البحث، أو ما يمكن تسميته بـ " ما وراء المنهج" على الأغلب، كانت تقوم على السعي من أجل إثبات تخلف الشعوب الأخرى، وإن كنا لا ننفي وجود نماذج رائعة من البحث الموضوعي، كل ذلك كان من أجل تبرير عقدة التفوق تلك التي عادت لتظهر بشكل بارز، بعد أن شهد التاريخ ظهورها عند اليهود وكذا عند

اليونان والرومان، وذلك حين كانوا ينظرون إلى الشعوب الأخرى نظرة دونية، وأطلقوا عليهم أوصافا للدلالة على ذلك.

4. خاتمة:

تبين لنا مما سبق أن عناصر الهوية الغربية كغيرها من عناصر الهويات الأخرى، تشكلت تاريخيا عبر سلسلة من التحولات الثقافية، غير أن أهم ما ميزها هو تداخل الديني مع العرقي، لينتج مركبا ثقافيا أكثر راديكالية مما هو متوقع، كان الأساس لتشييد هيكل المركزية الأوربية، التي أصبحت ناظما منه تنبثق رؤية ما صار يعرف بالغرب، خاصة وقد ساهمت عوامل أخرى ذات امتداد اقتصادي واجتماعي على التمكين لهذه الرؤية الهووية، و أصبح من اليسير اكتشاف الرؤية الاستعلائية الكامنة في طياتها تجاه الأنماط الهووية الأخرى. من هنا يبدو لنا أن حوار الحضارات يبدأ بلا شك من العمل على تفكيك وهم التفوق الهووي ابتداء، ونحسب أن هذا لا يكون إلا بمزيد من الفحص للبحث عن أسباب النجاح وتجاوز أسباب الفشل.

أهم المراجع:

1- بارتريك جيه. بوكانن، موت الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة.ط1، مكتبة العبيكان، الرياض : 2005.

2- توما الإكويني، الخلاصة اللاهوتية، ترجمة: الخوري بولس عواد، ج1، المطبعة الأدبية، بيروت: 1881.

3- جاكلين روس، مغامرة الفكر الأوربي، قصة الأفكار الغربية، ترجمة أمل ديبو، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2011م.

4- جورج مينوا، الكنيسة والعلم، تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي. ترجمة: موريس جلال. ط1، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، دمشق: 2005م.

5- جون هرمان راندل تكوين العقل الحديث، ج2. ترجمة: جورج طعمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة: 2013م.

6- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي؛ فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم. ترجمة فاضل جتكر. العبيكان، كلمة ، ط1 1431هـ، 2010م.

7- ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب. ترجمة: محمد محمود التوبة. ط1، مكتبة العبيكان:الرياض: 1430هـ/ 2009م.

8- سيد محمد نقيب العطاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد طاهر الميساوي، ط1، دار النفائس، عمان: 2000م.

9- عبد الله ابراهيم، المركزية الغربية؛ إشكالية التكون والتمركز حول الذات.ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء:1997م.

10- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، ط2، دارالهداية، القاهرة: 2000م.

11- منى أبو الفضل، أميمة عبود، سليمان الخطيب، **الحوار مع الغرب**، آلياته، أهدافه ودوافعه. ط1، دار الفكر، دمشق: 2008.

12- يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، بين إشكالية التقنين والتقديس، ط1، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق: 2009م.

13- Philippe Nemo, Qu`est-ce que L’Occident, PUF,2004, France.